القضايا الكبرى فى الاسلام

قضية التجسس لقريش

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

هذه قضية لها قيمتها فى أحداثنا الحاضرة ، ولو كنا نرجع فى حاضرنا إلى ماضينا ، لكان لنا منه أكبر العظات ، وأعظم العبر ، ولكنا قطعنا صلتنا بماضينا ، وأخذنا نتخبط فى حاضرنا ، وننظر فيه إلى من لا صلة بيننا وبينهم ، ولا يتفق أمرنا وأمرهم ، فتقطعت بيننا الأسباب ، واستفحل بيننا الخلاف ، ونكب المسلمون فى زعمائهم وقادتهم ، وصاروا ينظرون إلى من يأخذ بيدهم فيرتد الطرف إليهم وهو حسير

فى السنة الثامنة من الهجرة نقضت قريش عهدها مع النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية ، فتجهز النبى للسفر ، ولم يعلن أصحابه بما يريد من غزو قريش إلا أبا بكر رضى الله عنه ، ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وقد طوى ما يريد عن الجيش ، لئلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، وهو لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد أن يباغت أهلها فيضطرهم إلى التسليم من غير حرب ، وقد دعا الله تعالى فقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . وفى رواية أخرى : اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم ، فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فلتة . ثم أمر بالطرق فحبست ، وأقام جماعة بالأنقاب يراقبون من يمر بها ، وكان عمر رضى الله عنه يطوف على الأنقاب فيقول : لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه . وكانت الأنقاب مسلمة إلا من سلك إلى مكة ، فإنه يتحفظ منه ويسأل عنه

وقد أمكن حاطب بن أبى بلتعة مع ذلك التكتم الشديد أن يعرف قصد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو لخمى نزل مكة وحالف بنى أسد بن عبد العزى ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا

قال : ومن عقد هذا العقد ؟ قال : شيخ البلد وهو هنا .

وأمر القاضى بشيخ البلد فدعى . فحضر شيخ لحيته الى سرته ، له هيبة وشيبة ووقار . فسأله — فقال : نعم أنا زوجت هذه المرأة بفلان العسكرى . انها ذهبت اليه وساكنته خفت عليهما المعصية ! ! فزوجته بها الزواج الشرعى على كتاب الله ، وسنة رسول الله !

قال القاضى وزوجها الأول ؟ قال : نصحناه أن يطلقها فأبى . فهو المسىء الى نفسه . وما أكرهها بل زوجتها برضائها وموافقة أبيها . ولقد أنجبت منه أولاداً هم زينة البلد ، لا كأولادها من هذا الجاهل الذى لا يقيم الصلاة ...

قال أبوها وقد أحضر وسئل : نعم ، لقد رضيت بما رضى به شيخنا وعالمنا حفظه الله ، وأطال عمره ...

— ٤ —

فتاة (على الطراز الحديث ...) سافرة الوجه ، غضة الأهاب ، قصيرة الجلباب ، تحاول كلما تحركت أن تبدى ماخفى من زينتها ومن فتنها ، وقفت موقف المدعى . وكان المدعى عليه رجلا عليه سيما الصلاح ، وكان أباها ، فلما تكلمت تكلم معها حاجباها وشفتاها ، ورقص فى صدرها نهداها ، فأمرها القاضى بالأدب . لما رأى من تبذلها واستهتارها ، وأن تاتى (منديلها) على وجهها ، وأن تجد وتوجز فى كلامها ، وتسكن من جوارحها ، وأن تستشعر حرمة المكان ، وجلال المجلس ، وإلا حبسها بذنب (الإخلال باحترام المحكمة) . فأطاعت ما استطاعت

وكانت دعواها أنها ابنة المدعى عليه ، وأنها لا تنكر أن داره رحبة ، والمال فيها وفير ، والعيش هنىء ، وأنه ليس فى الدار الا أبوها وأمها ، وأنها لا تشكو شيئاً من جوع أو عرى ، ولكنها تشكو عدوان أبيها على حريتها ، فهو من (الطراز القديم) رجعى جامد ، لا يؤمن بالنهضة النسائية ... فهو لا يفتأ يسألها كلما خرجت ، لماذا خرجت ، وإن سهرت ليلة ، قال لها : أين كنت ، وإن سايرت شابا (مهذبا) أو زارته سبها وشتمها . فهى لم تعد تحتمل منه ذلك ، وتطلب فرض نفقة لها عليه لتعيش فى غير داره ...

... ولا أريد ان أكمل الصورة حسب القراء هذا الجانب منها ... وتأويله عند صاحبات (المؤتمر) !

دمشق — على الطنطاوى

والحديبية ، وكان له بمكة بنون وإخوة ، فخاف عليهم من قريش فى ذلك الغزو ، وأراد أن يتقرب إليهم بإخبارهم بقصد النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا يتعرضوا إلى بنيه وإخوته بسوء ، فكتب إليهم كتابا يخبرهم بذلك ، ثم استأجر امرأة بدينار وقيل بعشرة دنانير وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق فان عليه حرساً

والروايات مختلفة فى نص هذا الكتاب ، فقيل إنه كان فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد

وقيل إنه كان فيه : أما بعد يا معشر قريش ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل ، فو الله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده ، فانظروا لأنفسكم ، والسلام

وقيل إنه كان فيه : إن محمداً قد نفر ، فاما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر

فأطلع الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم على مافعله حاطب ، فقال لعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فخذوه منها وخلوا سبيلها ، فان لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها

فانطلق الثلاثة تعادى بهم خيلهم حتى أتوا روضة خاخ ، فاذا هم بالظعينة تسير على بعير لها ، فقالوا لها : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معى كتاب . فأناخوها والتمسوا ذلك الكتاب فلم يجدوه ، فقالوا : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قالوا لها : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب . وفى رواية أن علياً قال لها : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، لتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض . فأعرض فحلت قرونها فأخرجته من عقاصها ، وهو الخيط الذى تعقص به أطراف الذوائب ، أو الشعر المضفور ، أولُّ الشعر بعضه على بعض على الرأس ، وإدخال أطرافه فى أصوله ، أو السير الذى يجمع به الشعر على الرأس وفى رواية البخارى . فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته . والحجزة معقد الإزار ، والظاهر أن الكتاب كان فى ضفائرها ، وأنها جعلت الضفائر فى حجزتها .

فأخذوا الكتاب منها ورجعوا به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فدعا حاطبا فقال له : ياحاطب ماحملك على ماصنعت . فقال : يارسول الله لاتعجل علىّ ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ماغيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى ماضى حاطب وجهاده فى إعلاء شأن الإسلام ، وإلى موقفه فى غزوة بدر ، وما كان لها من عظيم الشأن فى إظهار الدين ، وفى قصة الحديبية ومبايعته فيها على الموت تحت شجرة الرضوان ، وقد قال الله تعالى فى شأن من بايعه تحتها فى الآية — ١٨ — من سورة الفتح (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) .

نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك كله من حسنات حاطب ، ثم نظر إلى تلك السيئة التى ارتكبها ، وهى تعدفى عرف الشرائع الوضعية الخيانة العظمى للدولة ، والعقوبة التى تستحقها هذه الخيانة هى عقوبة القتل ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن تنتهى حياة ذلك المجاهد بذلك الشكل القبيح ، ولم يشأ أن يضيع له جهاده الطويل فى الإسلام بفلتة من فلتات النفس ، وغواية من كيد الشيطان ، فرأى أن يستعمل فيها حقه فى العفو ، لأن الرئيس الأعظم على المسلمين ، له حق العفو عن مذنبهم إذا كان فيه مصلحة من المصالح ، ولكنه نظر قبل ذلك إلى من كان بالمجلس من أصحابه فقال لهم : إنه قد صدقكم ، ولا تقولوا له إلا خيراً . فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل

بدر يوم بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

وقد عنا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا عن حاطب رضى الله عنه ، بعد أن بين به أن عقوبة الجاسوس القتل ، لأنه أرشد إلى أن علة تركه أمر عمر بقتله هى شهوده بدرا ، فدل على أن من فعل فعله ولم يكن بدريا يستحق القتل ، ثم نزل بعدهذا فيما فعله حاطب قوله تعالى فى الآيات الأولى من سورة الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلاقول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) إلى آخر القصة .

وفى هذه الآيات معاتبات رقيقة لذلك المجاهد الكريم بعد ذلك الصفح الجميل ، وعظات كريمة أطلقت إطلاقا ، ولم توجه إليه بخصوصه ، حتى لايكون فى ذلك ما يشم منه رائحة تشنيع ، ولا يكون فيه تصريح بتلك الخيانة ، ولا يشوب جهاده منها شائبة تشوبه ، ويمضى العفو عن ذنبه خالصاً يمحو كل أثر للذنب ، ولا يبقى أية حفيظة عليه فى نفوس المجنى عليهم .

ولم يكن كل هذا إلا لأن حاطبا كان من المجاهدين الأولين فى الإسلام ، وللمجاهدين الأولين فى كل دعوة شأنهم فى نفوس من يأتى بعدهم ، فاذا روعى لهم جهادهم إلى آخر حياتهم ، وأحيطوا بجانب من القداسة يعلى شأن جهادهم ، وينسى معه بعض مايحصل من زلاتهم بحسن قصد ، ومن غير تنكر للدعوة التى جاهدوا فى سبيلها — إذا روعى لهم كل هذا كان مدعاة لأخذ الخلف بسنة السلف فى الجهاد ، حتى ينالوا مثل قداستهم فى نظر من يأتى بعدهم ، ودعا أيضا إلى تكوين القدوة الصالحة اللازمة فى تاريخ كل أمة من الأمم ، وهى الماضى المجيد الذى يقوم على أساسه بناء المستقبل ، وهذه هى الحكمة الجليلة فى ذلك القول الذى ورد عن أهل بدر — اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم وفى بعض الروايات فانى غافر لكم ، وهذا يدل على أن المراد بقوله غفرت فى الرواية الأولى أنه سيغفر لهم فى المستقبل مايقع منهم ، وقد عبر عنه بالماضى مبالغة فى تحققه ، ولو كان المراد منه الماضى حقيقة لما صح أن يخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم عمر رضى الله عنه ، لأنه ينكر به عليه ماقاله فى أمر حاطب ، ولا يكون فيه إنكار عليه إلا إذا كان الغفران لما يكون من ذنوبهم بعد بدر ، على أنه لايراد من هذا إباحة فعل الذنوب لهم ، وإنما هو خطاب تكريم وتشريف ، ولا يراد منه إلا أنهم حصلت لهم بتلك الغزوة حالة من القداسة ، غفر معها ماسلف من ذنوبهم ، وتأهلوا الآن يغفر لهم مايحصل من الذنوب اللاحقة إن وقعت منهم وقد خصهم الله تعالى بذلك تكريما لجهادهم ، وإعلانا عن عظيم حبه لهم ، وما أحسن ماقيل فى هذا الشأن :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وموضع العظة لنا من هذه القضية أنه كان لنا جهاد سابق جمع كلمة الأمة ، وأيقظها من رقدتها ، وسار بها فى طريق الإصلاح والنهوض ، فجنت من ثمار الجهاد ماجنت ، وقطعت شوطا بعيداً فى طريق الإصلاح ثم تنكرنا لذلك الجهاد ، وأخذنا نجرح الذين قاموا به ، ونرميهم بكل قبيح ، ونكيل لهم التهم جزافا وتنكر أولئك المجاهدون بعضهم لبعض ، فضعفت ثقة الأمة فيهم ، وضاعت القدوة الصالحة التى تكون محل الثقة والقداسة ، وعاد كل شخص إلى سيرته الأولى قبل ذلك الجهاد ، لا يهمه إلا أمر نفسه ، ولا يسعى إلا فى سبيل مصلحته.

فهل لنا أن نعود إلى ماضينا فنتعظ بموضع العظة منه ، وننظر إلى المجاهدين فينا كما كان ينظر سلفنا إلى المجاهدين فيهم ، ولا تتنكر لجهادهم كما تتنكر الآن ، فنحاسبهم على الهفوة بأشد مايكون من القسوة ، ونسلك فى حسابهم سبيل التشنيع والتشهير ، وهم لم يصلوا فى هفوتهم إلى تلك الخيانة العظمى التى ارتكبت فى تلك القضية .

وهل لأولئك المجاهدين أن يعودوا إلى سيرتهم الأولى ، فيمد بعضهم يده إلى الآخر ، ويعرف له فضل جهاده الأول ، ذلك الجهاد الذى كان فينا مثل جهاد أهل بدر ؟

عبد المتعال الصعيدى